قراءة في تجديد النحو العربي وتيسيره في العصر الحديث

مأمون سليمان الغنام

المقدمة

المتتبع لظاهرة تجديد النحو ليتساءل: لماذا تجديد النحو أو الدعوة إلى تيسيره؟ ومن هنا فإن هذه الدراسة تهدف إلى جدوى محاولات تجديد النحو وأهميتها في العصر الحديث، وأبرز من كتبوا بها واقفة على أبرز مناهجهم التي التزموا أو بنوا عليها دراساتهم، كما أن هذه الدراسة تحاول أن تجيب عن بعض الأسئلة في هذا الجانب: هل هي دعوة تحتاج منا إلى هذا القدر الهائل من المؤلفات والرسائل والبحوث؟! هل أثمرت جهود مجددي النحو في تجديده في العصر الحديث؟! هل هذه المحاولات ردت إلى النحو حياته وهويته ونشاطه؟! وهل هي دعوة صادقة في نواياها أم أن لها نوايا خفية تهدف إلى تحييد اللغة وإبعاد أبنائها عنها؛ أم أنهم يهدمون بذلك صرحا مهما من مقومات الأمة؟! ولا سيما أن هناك دعوات في تجديد النحو دعت إلى دراسة اللغة وفق مناهج البحث اللغوي الحديث؛ فأخذت تنادي بدارسة اللغة العربية دراسة وصفية أي دراسة اللغة في صورتها العامية من باب أنها أكثر صدقا في تمثيل أبنائها.

ألا يحق لنا أن نعيد النظر في دراسة نحونا العربي دون أن توجه لنا الاتهامات، بأننا نحاول أن نعبث بنسيج العروبة الممتد عبر مئات السنين؟! ولماذا ينظر بقداسة لجهود النحاة القدامى في حين ينظر إلى جهود المحدثين بنظرة الشك والارتياب حينما يدعون لتجديد النحو، علما أن من المحدثين من خدم العربية وأحسن لها، فرأى من الضرورة تجديد النحو؟ ثم ألم يدرس النحاة- مع أن أصولهم ليست عربية- النحو العربي، وقدموه لنا على هذا النحو دون أن نشكك- ولو للحظة- بنواياهم، ألم يبذلوا جهدا بل جهودا فيها من التعب والضنك ما يجعلنا نقف احتراما وتقديرا لهم لا طاعنين عليهم، ولا شاكين فيهم قَدْر أنملة، قدرنا جهودهم وخدمتهم للنحو العربي، ولم نبحث عن أهداف باطنة مما آل إليه النحو في العصر الحديث.

أليس من الأجدر بنا أن ننظر إلى أية دعوة في تجديد النحو على أنها إضافة في خدمة اللغة العربية، إذ تبني على ما سبقها ولا تهدمه، ولا سيما أننا بحاجة إلى إعادة النظر في النحو العربي بالتجديد أو التيسير أو المنهج، ولنا أن نتمثل ما بين أيدينا من كتب النحو والنحاة- على كثرتها- وكيف أن أبناءنا يصدون عنها صدودا، بل إنهم ينفرون منها ومن المشتغلين بها في كثير من الأحيان، وينظرون إليهم أنهم يتكلمون بغير لسانهم، ولعل هذا الانطباع لا ينفرد به أبناء العربية في العصر الحديث، بل له أصوله وجذوره في كتب التراث.

الاتجاه الأول: الاتجاه الإحيائي

محاولة إبراهيم مصطفى

بدأت محاولات تجديد النحو في العصر الحديث على يد إبراهيم مصطفى في كتابه" إحياء النحو"، ولكن قبل الحديث عن محاولته في التجديد علينا أن ننصف الرجل بالحديث عنه والتعريف به؛ فكثيرون يجهلون مكانته ولا يقدرونه حق التقدير، ويؤولون تجديد النحو تأويلا يخرجه عن خدمة العربية. فإبراهيم مصطفى (١): عالمٌ لغوي مصري، وعضْوُ مَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة، وُلِد عام ١٨٨٨م وتلقَّى في طفولته تعليمًا دينيًّا تقليديًّا؛ حيث حفظ القرآن الكريم ثم التحق بـ «الأزهر الشريف»، ودرس به حتى التحق بمدرسة دار العلوم العليا (كلية دار العلوم الآن). وقد شُغِف مصطفى منذ صِغَره بالنحو ومسائله وأظهر فيه نبوغًا وتفوُّقًا؛ حيث كان يُطلِق عليه أساتذته «سيبويهِ الصغير»؛ وذلك لأنه كان الأكثر حفظًا بين زملائه لمتون اللغة وفن التجويد وعلم القراءات، كما كان دائمَ البحث في كتب النحو والصرف ليطَّلِع على المسائل النادرة فيها.عمل مصطفى بعد تخرُّجه مدرسًا بمدارس «الجمعية الخيرية الإسلامية» حتى أصبح ناظرًا

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

لها ومفتّشًا بالتربية والتعليم بعد ذلك؛ ثم اختير لتدريس اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن)، وتدرَّج في المناصب حتى أصبح أستاذًا للنحو. وعند إنشاء كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عمل هناك أستاذًا للأدب ورئيسًا لقسم اللغة العربية، حتى وصل لدرجة وكيل الكلية. ثم أصبح عميدًا لكلية دار العلوم حتى إحالته إلى المعاش. اهتمَّ مصطفى بتبسيط النحو وتخليص قواعده من الصعوبات وعِلَل النُّحاة، فأحدَثَ ثورةً في اللغة بوضعه كتابَ «إحياء النحو»، الذي انتَقَد فيه بعض المسائل العلمية التي جعلت من النحو العربي عِلْمًا يهتمُّ بضبط الكلمة وإعرابها فقط، ممَّا ضيَّق من حدوده الواسعة وقصر غاياته، فخرج مصطفى بآراء جديدة تهدف إلى تبسيط النظريات والقواعد اللغوية؛ حيث قابَلَها البعض بالترحاب، وقابَلَها البعض الآخَر بالهجوم العنيف؛ ليغير كتابُه كثيرًا في حقل الدراسات اللغوية العربية ويفتح المجال أمام المزيد من أطروحات التبسيط والتيسير اللغوي.تُوفِّي في عام ١٩٦٢م بعد حياة حافلة بالعطاء الأكاديمي والأدبي، ورثاه الكثير من الزملاء والأدباء الكبار كـ "طه حسين" والأديب "أحمد حسن الزيات".

فإبراهيم مصطفى قامة لغوية وعلمية وفكرية نهلت من معين كتب اللغة، وكونت قاعدة علمية ومعرفية جعلته أهلا؛ لأن يخوض في إحياء النحو ويدعو إلى تجديده وإعادة النظر فيه، فهو ابن اللغة ناطقا وعالما ومفكرا لم يأتِ من خارج محيطها، فهو معني به وهادف لإرجاعها لطريقها السليم، فـ" سيبويه الصغير" لقب لم يكن بدعا من القول، ولهذا دعا إلى استدراك ما أقحم على النحو من فلسفة ومنطق وعلل واهية ضعيفة أوهن من بيت العنكبوت، ولنا أن نتمثل رأي طه حسين في تقديمه لكتاب " إحياء النحو" إذ يقول: "هذا كتاب سيراه الناس جديدا، وما أرى أنهم سيتلقونه بما تعوّدوا أن يتلقوا به الكتب من الدعة والهدوء، ولا أحسبني أخطئ إن قدرت أنهم سيدهَشون له، وأن كثيرا منهم سيضيقون به وقد يتجاوزون الضيق إلى الخصومة العنيفة والإنكار الشديد؛ لأن الكتاب جديد كما قلت، في أصله وصورته وهو من أجل ذلك يخالف كثيرا جدا مما ألف الناس، وقد يغير كثيرا جدا مما ألف الناس، فلا غرابة في أن يلقوه بالدهش وفي أن يثور الثائرون به"(٢).

يبني إبراهيم مصطفى كتابه (إحياء النحو ١٩٣٧م) على رفض نظرية العامل والتوسع في الإعراب التقديري، ويرى أن علامات الإعراب يجب أن تدرس على أنها علامات للمعاني وهو يقرر أن الضمة علم الإسناد ودليل على أن الكلمة مرفوعة، يراد أن يسند إليها ويتحدث عنها، والكسرة علم الإضافة، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها بأداة أو بغير أداة، ولا يخرج كل منهما عن هذه إلا أن يكون في بناء أو إتباع، وللإعراب الضمة والكسرة فقط، وليستا أثرا لعامل من اللفظ، بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى في تأليف الكلام ؛ فالفتحة عنده لا تدل على معنى كالضمة والكسرة، فليست بعلم إعراب، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب، التي يحبون أن يشكلوا آخر كل كلمة في الوصل ودرج الكلام، فهي في العربية نظير السكون في لغتنا العامية(٣).

ويرى أيضا أن أبا عبيدة معمر بن المثنى(ت٢٠٨هـ) سلك منهجا مختلفا في دراسة العربية يتجاوز الإعراب وذلك في" مجاز القرآن" فقد تطرق إلى الجملة العربية وما يعتريها من تقديم وتأير وحذف..، وقد كان بابا جديرا أن يفتح، وخطوة في درس العربية حرية أن تتبع الخطة الأولى في الكشف عن علل الإعراب، ولكن النحاة شغلوا بالإعراب فكان سيبويه إمام النحاة؛ فنسي كتاب مجاز القرآن وأهمله (٤).

يرى إبراهيم مصطفى أن عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) رسم طريقا جديدا للبحث النحوي، ويتمثل ذلك في دلائل الإعجاز، فقد تجاوز حركة أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام" نظما" وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل للإبانة والإفهام، وأنه إذ عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهما معناه، ولا دالا على ما يراد منه"(٥).

لقد تعرضت هذه المحاولة إلى نقد كبير من قبل العلماء والباحثين الذين بينوا فساد الأصول التي انتهى إليها الباحث، وعدم استقامة أحكامها، واطرادها على كلام العرب. كما أثبتوا أن الأفكار التي زعم إبراهيم مصطفى أنها جديدة على الناس ليست كذلك، فكثير من المسائل التي ذكرها، وأجهد نفسه في الاحتجاج لها والبرهنة عليها أصلها للقدماء. وقد أورد العلماء من كلام النحاة ما يدل على أنهم سبقوه، وقرروا ما قرره أو على الأقل فطنوا إلى ما فطن إليه ؛ ففكرة المتكلم هو الذي يحدث الإعراب فكرة ابن جني (ت ٣٩٢ هـ)، وفكرة إعراب الأسماء الستة بحركات

مطولة فكرة قالها المازني (ت ٢٤٩) وفكرة الحركة الخفيفة عند الوصل ودرج الكلام هي لقطرب (ت ٢٠٦)، وفكرة الرفع علم الفاعلية والجر علم الإضافة فكرة الزمخشري (ت ٥٣٨)، وفكرة العمدة والفضلة فكرة الرضي (ت ٦٨٤ هـ)، وصاحب فكرة إلغاء نظرية العامل هو ابن مضاء (ت ٥٩٢) (٦).

محاولة شوقي ضيف(٧):

يرى شوقي ضيف أن صيحات تجديد النحو وتخليصه مما فيه من تعقيد وعسر شديد، منذ زمن طويل، حتى إن وزارة المعارف كتبت تقريرا مسهبا ضمنته تقريرا في التيسير المنشود، وحتى مجمع اللغة العربية درس هذا التقرير في عام ١٩٤٥ مضيفا له بعض المقترحات، وعلى إثر هذا ظهرت المؤلفات في النحو التعليمي إلا أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح، وفي أثناء تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء ضمن مقدمة الكتاب ثلاثة أسس لتجديد النحو:

- إعادة تنسيق الأبواب النحوية وضم بعضها إلى بعض كي لا ترهق الدارس.
- إلغاء الإعراب التقديري والإعراب المحلي.
- ألا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها أي فائدة في صحة نطقها.
- إضافة تعريفات وضوابط للمفعول المطلق والمفعول معه والحال.
- حذف ثمانية عشرا بابا من أبواب النحو
- حذف زوائد كثيرة من أبواب النحو تعرض فيه لدون حاجة، إما لأن الأمثلة تغني عنها، وإما لشذوذها وندرتها، وإما لأنها من العقد والألغاز التي لا تكاد تُفهم إلا بالتكرار وإعادة النظر فيها.
- إضافة باب لنطق الحروف لمعرفة أصواتها وخصائص نطقها ومخارجها مما لا يستغني عنه الدراس.

الاتجاه الثاني: التجديد وفق مناهج البحث اللغوي الحديث

محاولة تمام حسان

حاول العلماء في هذا الاتجاه النظر للغة العربية وفق مناهج البحث اللغوي الحديث التي ظهرت مؤخرا كالمنهج الوصفي والمنهج التحويلي على اختلاف واضح وبين في نظرة كل واحد منهما للغة، فتمّام حسان مثلا دعا لتجديد النحو في كتابيه:العربية بين المعيارية والوصفية، ١٩٥٨م واللغة العربية معناها ومبناها ١٩٧٣م،وانتقد في كتابيه تقديس القواعد بعد أن كانت خاضعة للنص، ويؤيد ابن مضاء في رفضه للعامل ويرى ألاّ عامل في اللغة والمقصود من أي حركة إعرابية هو الربط بينها وبين معنى وظيفي خاص، والشرط الوحيد في كل ذلك أن يكون هناك ارتباط تام بين اختلاف الحركات واختلاف الأبواب(٨)، واتبع المنهج الوصفي في دراسته للغة في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها ويعدها أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية بعد سيبويه وعبد القاهر الجرجاني(٩)،ويرى أن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق على وجهه كاف للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية، والتعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ويفسر العلاقات بينها بصورة أوفى)١٠(، ويبين موقف الإنسان من اللغة في حالي الدرس والاستعمال، كانوا يقولون: العرب تقول: كذا، وكان النحاة في هذه المرحلة باحثين ثم أصبحوا بعد اكتمال النحو معلمين، فقد كان الكسائي معلما لأبناء الرشيد، فالمعيار أداة التعليم، والوصف أداة البحث، وهذا البحث بين هذا وذاك)١١(، ثم طالب بإصلاح نظام الكتابة في اللغة العربية، ولا سيما أن هناك قصورا فيه، وذلك في إهمال علامات الحركات اكتفاء برموز الحروف الصحيحة، وما يؤديه هذا من عقبات مالية وقومية واجتماعية وثقافية، وقد اقترح عبدالعزيز فهمي استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة، واقترح تمام حسان في استكمال النقص في نظام الكتابة برموز إضافية من الكتابة الإغريقية واللاتينية)١٢(، ولكنه تراجع عن هذا الاقتراح واكتفى بإبقاء التراث على صورته التاريخية ثم ذكر اعتراض بعض الباحثين على الاعتداد بالاستقراء والمنهج العلمي مع رفض التفسير(العلة الغائية)،مستفدين بما ظهر عند تشومسكي من الاعتداد بالتفسير في منهجه التوليدي، ورد على ذلك بـ:

١- هناك فرق بين النظرية والحقيقة العلمية، فالنظرية اجتهاد مبني على الحدس، والحقيقة قائمة على الملاحظة" الاستقراء من قبيل الملاحظة".

٢- عمل تشومسكي أصلا لم يكن ليتم لولا الاستقراء الذي انتفع به من نتائج بلومفيلد وهاريس أستاذه.

٣- الاستقراء عنده لا يتعارض مع ما قام به النحاة العرب من الاستنباط عندما جردوا من المادة التي تم

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

استقراؤها فكرة أصل الوضع، وأصل القياس وأصل الاشتقاق، وكان ذلك مبنيا على أسس موضوعية لا على العلل الغائية التي تصلح في مجال الفلسفة والنظريات المجردة.

يرى تمام حسان أن الناس في معظمهم يشكون داء في النحو لا يستطيعون تشخيصه، فإذا أرادوا تشخيصه انصرفوا دون قصد إلى سرد أعراضه فتكلموا في جزئيات المنهج لا في صلب المنهج)١٢(، وشتان ما بين من يدرس أو ينتقد أجزاء المادة وبين من يريد علاج الفلسفة التي بنيت عليها دراستها، ويبين تمام حسان أن المنهج الوصفي هو جوهر الدراسات اللغوية في العصر الحاضر، وموقف الباحث من اللغة يختلف عن موقف المتكلم، فاللغة موضوع من موضوعات الوصف كالتشريح لا مجموعة من القواعد كالقانون وهم اللغوي أن يصف الحقائق لا يفرض القواعد(١٤)، وهو بذلك ينتقد المعيارية في دراسة اللغة فيوجه اللوم على منهج النحاة في دراسة اللغة العربية وفق الحكم بالصواب والخطأ، فالمعيارية من موقف المتكلم مقبولة، ولكنها ليست مقبولة من موقف الباحث الذي عليه أن يدرسها وفق المنهج الوصفي،وفي كلامه عن كلام النحاة عن المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال، ليس لديه دليل إلا شاهد شعري مصنوع وفي قراءة غير موجودة عند ابن الجزري؛ يقول تمام حسان: لست أدري كيف يرضاها اللغويون؟(١٥)، فالقياس ليس وسيلة في دراسة اللغة ونتائجه لا ينبغي أن تكون محل ثقة تامة؛ وأكبر دليل على فشل القياس النحوي تعارض النتائج التي يتوصل إليها عن طريق القياس، ومنهج اللغة ينبغي أن يقوم على الاستقراء والوصف لا على القياس والمعيار(١٦).

محاولة عبدالقادر الفهري:

وأما عبدالقادر الفاسي الفهري فيدعو إلى الاستفادة من النظريات اللسانية الحديثة في تجديد النحو وضرورة التزام المنهج العلمي السليم في انتقاد التراث أو وصف الظواهر اللغوية، ويقدم في كتابه نماذج تطبيقية للغة العربية مستفيدا من النظريات اللسانية الحديثة التي تحولت إلى العناية بالنحو على وجه الخصوص، ويمكن أن يؤخذ كتابه كمادة أولى أو نظرية تستثمر في حصر أهداف كتاب مدرسي لقواعد اللغة العربية. ويجد أن النحو التقليدي لا يزودنا بكل ما نحن في حاجة إليه، بل لا نحتاج بالضرورة إلى مفاهيم القدماء وأصولهم" وأن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال ولكن يمكن ذكر آراء النحويين القدماء على سبيل الاستئناس (١٧).

وتنتمي دراسة الفهري إلى الدراسات اللسانية الحديثة في تجديد النحو العربي، وتلتقي هذه الدراسة مع دراسة عبده الراجحي وتمام حسان، ولكن بأسلوب آخر ولغة أخرى، ولكنها لا تقل صعوبة وتعقيدا عما جاء به الأوائل، فشرح نظرية الربط العاملي عند تشومسكي(١٨) شرح يحتاج لبعد نظر ويدعو إلى وصف اللغة العربية الحالية وصفا كافيا يمكن من بناء نظرية للغة العربية أو " نحو" يمثل الملكة الباطنية لمتكلم هذه اللغة ومستعملها، ويتبنى هذا العمل عدة افتراضات إبستمولوجية ومنهجية وتحليلية، فالنحو واقع نفسي، وإن هناك علاقة وثيقة بين النحو فيه معناه الضيق (نسق القواعد) وبين المعجم، ويذهب إلى دراسة اللغة واللهجات دراسة نفسية(١٩).

ثم يقدم نقدا لمحاولات التجديد، فجل اللسانيين في نظره الذين واجهوا التجديد لم يأتوا بالجديد المطلوب، إلا من درس منهم بالغرب، واشتغل باللهجات، فأولى العقبات في وجه التجديد، كانت الاشتغال على العربية الفصيحة وعدم الاهتمام الكافي بالبحث في اللهجات، وحتى الوصفيون الذين انتقدوا القدماء احتفظوا بما جاء به القدماء، ولم يحاولوا دراسة وصف لغة أخرى جديدة اعتمادا على نصوص شفوية أو مكتوبة كالروايات والمحاضرات والأشعار(٢٠)، كما يرى أن هناك تصورا خاطئا للعربية لدى كثير من الباحثين، وذلك أن اللغة العربية تتميز وتنفرد عن غيرها من اللغات، ولهذا لا يمكن وصفها بالاعتماد على النظريات الغربية التي بنيت لوصف لغات أوروبية، وفي الحقيقة أن اللغة العربية كغيرها من اللغات البشرية تشترك معها في عدد من الخصائص(الصوتية والتركيبية والدلالية) وتضبطها قيود ومبادئ تضبط غيرها من اللغات، وبكونها عربية تتميز بمجموعة من الخصائص التي لا توجد في كل اللغات، فلا نكاد نجد ظاهرة في العربية إلا ونجد لها مثيلا في لغة أو لغات أخرى هندأوروبية أو غير هندأوروبية، كما أنه يرى أنه يجب علينا التمييز بين التجربة والنظرية، فالنظريات اللسانية الغربية طبقت على نماذج غربية ولم توضع لنماذج غير غربية كالعربية مثلا، ولهذا علينا مزج

النظريات الغربية في سبيل تطبيقها على العربية للحصول على نموذج" مرمم"، فالمنهج الوصفي أثبت جدواه وكفايته في درس الظاهرة والقول بسطحيته ضرب من الشعوذة على حد تعبيره، وأما فيما يتعلق بادعاء العلمية والمنهجية، فتمام حسان مثلا وأنيس فريحة وهما نموذجان يدلان على أن العلمية لا يعني أن يكون الخطاب علميا بالفعل، فالوصفيون يرفضون العلة ونظرية العامل والإعراب والتقدير وعددا من الأصول والمفاهيم الموجودة في التراث ويرفضان الخروج من شيء ملاحظ إلى شيء ملموس، ويدعون أن هذه الأشياء ليست من العلم.

تحليل الدراسات والمحاولات:

بعد عرض موجز لنماذج من المحاولات النظرية والتطبيقية التي أنجزها اللغويون لحل مسألة القواعد النحوية وتدريسها، نطرح الأسئلة الآتية: هل استطاعت المحاولات الحديثة، أن تقرب النحو من عقل التلميذ ليفهمه ويسيغه ويتمثله، ويجري عليه تفكيره إذا فكر، ولسانه إذا تكلم، وقلمه إذا كتب؟ وهل فعلت شيئا يعيد للنحو التعليمي حيويته، ويشيع فيه قوة تحبب إلى التلاميذ درسه ومدارسته؟ وما مقدار التجديد في تلك المحاولات؟ بل ما هو المفيد الذي يمكن استثماره في تعليمية مادة النحو خاصة، والعربية عامة؟

يرى بعض الدارسين أن «محاولات التيسير التي ظهرت في الكتب المدرسية حديثا لم تقدم جديدا، ولم تفعل شيئا يعيد للنحو حيويته ؛ لأنها لم تصحح وضعا، ولم تجدد منهجا، ولم تأت بجديد إلا إصلاحا في المظهر، وأناقة في الإخراج. أما القواعد فقد بقيت على حالها كما ورثناها، حتى الأمثلة لم يصبها من التجديد إلا نصيب ضئيل » (٢١). وهو رأي فيه شيء من المبالغة في توهين الجهود التي بذلها اللغويون والمربون لحل مسألة القواعد. وكذلك فيه جانب كبير من الحقيقة، لأن الواقع الذي هو عليه المادة النحوية في الكتب والمقررات التعليمية يؤكد فشل جل محاولات الإصلاح والتجديد، إن لم نقل كلها. فتلك المحاولات سلكت طريقا مسدودة، واستنفذت جهودها في أرض بور، فكانت النتيجة العملية صفرا أو قريبة من الصفر.

إن توجه كل محاولة لتيسير النحو يتأسس على نوع الفكرة التي يحملها الدارسون حول مفهوم التيسير بمعنى أن التصورات التي يحملها الميسرون حول مفهوم التيسير تؤثر سلبا وإيجابا في جانبه الإجرائي. وعليه، فإن انطلاق المجددين والمصلحين من مفاهيم وتصورات قاصرة عن فكرة التيسير أدى إلى اقتراح بدائل مشوهة أو خاطئة أو ناقصة.

إن التيسير لا يعني استبدال مصطلح نحوي مبهم بآخر جلي واضح، أو بتعويض تعريف معقد بآخر سهل مبسط، أو بإعداد مقررات مختصرة عوضا عن المقررات الطويلة المكثفة، أو بحذف أجزاء من النحو والإبقاء على أجزاء أخرى.... إنما التيسير هو:

أولا: انتقاء علمي للمادة النحوية، يتضمن تأملا وتفكيرا في طبيعة هذه المادة المدرسة، وكذلك في طبيعة وغايات تدريسها، ثم إعدادا لفرضياتها الخصوصية، انطلاقا من المعطيات المتجددة والمتنوعة باستمرار في اللسانيات وعلم النفس وعلم الاجتماع والبيداغوجيا... الخ (٢٢).

ثانيا: عرض جديد لموضوعات النحو، وترسيخ لها بطرق حية جذابة فيها إبداع وابتكار، وعلى هذا ينبغي أن تنصب جهود التيسير.

الاتجاه المهاجم للنحو والنحاة

نلاحظ في هذه المحاولة -والتي يمكن أن نقول عنها: إنها هجوم شرس على النحاة الأوائل والمحدثين وإنها أيضا ردة فعل سلبية على فشل محاولات تجديد النحو العربي- أنها تهاجم النحاة القدماء والمعاصرين، فتصفهم أحيانا بالإجرام والجناية" وتصفهم أحيانا أخرى بالاستبداد والدكتاتورية، وتتخذ من رموزهم أدوات لتحقيق ذلك، وبما أن أبرزهم سيبويه، فقد كان له من ذلك نصيب وافر، واللافت للنظر في هذه المحاولة أنها تهاجم النحو والنحاة، وأن أصحابها لا ينطلقون من منطلقات علمية أو منطقية، بل يهاجمون النحو والنحاة أقل ما يقال عنه إنه هجوم شرس، على الرغم أن أغلبهم ليس على صلة بالنحو أو الاشتغال به، فكانوا يعلنون آراءهم ومواقفهم بمقالات صحفية غير مبنية على أسس البحث العلمي، مع أنني لم أستقصِ كل ما قيل في هذا الصدد، إلا أنني حاولت أن أدرس هذه المحاولة فيما يرونه تجديدا مع أنه ليس بالتجديد في شيء من حيث المنهج والرؤى، ومن المؤلفات في هذه المحاولة:جناية سيبويه، لزكريا أوزون.

زكريا أوزون في كتابه (جناية سيبويه، الرفض التام لما في النحو

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

من أوهام ٢٠٠٢م) يطرح عددا من الأسئلة يحاول الإجابة عليها.هل قواعد اللغة العربية منطقية؟ و هل قواعد اللغة العربية عقلانية؟ هل يتقن ناطقو اللغة العربية قواعد لغتهم؟و لماذا أخفق و يخفق الطلاب –على اختلاف مستوياتهم العلمية – بفهم و تطبيق قواعد النحو العربي؟ ثم لماذا نشأت اللهجات العربية في مختلف أرجاء الوطن العربي ولم تعتمد قواعد اللغة العربية؟ وهل نجح سيبويه و أتباعه و كل أهل مدارس النحو في عقلنة قواعد اللغة العربية؟ ويرى المؤلف أنّ قواعد العربية لم يضعها العرب "والسبب ببساطة يعود إلى أنّ سيبويه –كونه فارسي الأصل – قام بوضع قواعد لأمثاله في ذلك الوقت كي لا يلحنوا في لفظ كلمات اللغة وبينما يجد أكثر دعاة التجديد أن صعوبة النحو تكمن في المبالغة في العربية" إخضاعه لمقاييس المنطق يجد أوزون أن النحو العربي غير منطقي البتة، مع أن أوزون لم يلتزم في نقده بأي منهج علمي، بل اتبع أسلوبا ساخرا مستفزا(٢٣).

ونلاحظ أن الكاتب لم يرجع إلى كتاب سيبويه، ولم يشر إليه مرة واحدة، يقول محمود مغالسة في بحثه الموسوم بـ الجناية " جناية سيبويه": " يبدو أن الهدف من الكتاب هذا ليس هدم نحو سيبويه وبيان ما فيه من أوهام ليرفضه رفضا تاما فقط، وإنما أيضا للقضاء على الفصحى ولتسود العامية"(٢٤)، ولو أنه أراد غير هذه الغاية لنظر في كتاب الجاني على اللغة العربية وأهلها" والغريب أنه لم يعد إلى كتاب سيبويه، ولم يشر إليه مرة واحدة، مع أنه يعده جانيا، ألم يكن من الأولى له أن يقلب صفحات كتاب سيبويه، وأن يدينه من خلال كتاباته بعد أن يستحضر لنا مجموعة من أقواله، لقد فعل المؤلف عكس ما يتوقع منه،...، وإنما كان يتوجب عليه أن يحاكم النحو والنحاة من خلال كتبهم وأقوالهم"(٢٥). والملاحظ في في أصحاب هذا الاتجاه أن أصحابه لم يتبعوا المنهج العلمي والنقد العلمي فيما قالوا بل تجاوزوا الحدود في التهكم والسخرية، فلم يكن جهدهم في الإصلاح والتطوير هادفا ولا ممنهجاً؛ فنالوا بذلك الهجوم الشرس والنقد اللاذع ممن ردوا عليهم.

ولا بد أن نشير هنا إلى قضية مفصلية في ظاهرة تجديد النحو وتيسيره، ألا وهي أن تيسير النحو لا يعني بالضرورة هدم أركان النحو العربي، وطمس معالمه جملة وتفصيلا، إذ لا يمكن أن يكون البديل المطروح لتيسير النحو العامية أو إحدى لهجاتها بأية حالة من الحالات، لما يحمله تعميم العامية من خطورة ليس على بقاء اللغة العربية ودوامها، بل يشكل خطورة على عملية التواصل بين الشعوب العربية، إذ تزاد الهوة بين الشعوب العربية تواصليا إذا ما عُمِّمت العامية لتكون لغة التعليم ولغة التواصل اليومي بشكل رسمي.

ونضيف هنا أيضا، أن تيسير النحو لا يعني بالضرورة أن نجعل من الفاعل منصوبا، ومن المفعول به مرفوعا، بل يبقى كل باب من أبواب النحو على حالته الإعرابية المعروفة من أن المبدأ مرفوع والخبر مرفوع، وأن اسم إن منصوب وخبرها مرفوع، وغير ذلك من أبواب النحو، وإن وردت شواهد تراثية تخالف ذلك، وبذلك تكون جدوى التيسير في تجنب تلك الشواهد وتجاوزها، فلا تشكل همّا للمدرس في تدريسها بحيث إنها تفسد ما بناه أصلا في ذهن الطلاب من اطراد القواعد. كما أن التيسير يكون أيضا بتجاوز التفسيرات والتعليلات المنطقية والفلسفية التي تجعل من النحو العربي غير منطقي في تعليم العربية على أقل تقدير.

الخاتمة

عرضنا في هذا البحث أهم الاتجاهات التي نادت بتجديد النحو العربي في العصر الحديث، وقد كانت هذه الاتجاهات تنبئ عن منهج أصحابها في النظر العربي، فمنهم من دعا إلى إعادة النظر في جهود النحاة بالحذف والاختصار و إعادة تبويب الأبواب، ومنهم من انصرف عن منهج النحاة الأولين إلى مناهج البحث اللغوي الحديث كالمنهج الوصفي والمنهج التحويلي، ومنهم من رأى أنه لا ينبغي لنحو سيبويه أن يسيطر علينا داعيا لإسقاطه.

ثم عرضنا لكيفية تطور النظرة إلى تجديد النحو العربي بين الالتزام بمجمل ما ورد في كتب النحو ولكن مع التعديل والتنظيم، وبين الدعوة إلى توصيف العامية بدلا عن الفصحى، وقد تحقق فشل هذه المحاولات جملة وتفصيلا، ولا سيما أن النحو ما زال هو هو، إذ بقي النحو يدرس كما هو بينما محاولات التجديد زالت واندثرت، مع أن واقع الاستعمال يتجه نحو طريقها.

ثم تبين لنا كيف أن النحو آخذ في الزوال من حيث الاهتمام والالتزام في كثير من جوانب الحياة، وأن عوارض إعرابه زائلة أو تكاد تزول من النتاج

المعرفي والثقافي والأدبي للأمة العربية، ولكن العربية الفصحى ما زالت موجودة، ولكن غابت الدراسات التي تعنى بدراسة واقع اللغة العربية في نطاقه المنطوق؛ لتعيد توصيف النحو العربي فيما هو واقع ملموس، ولا سيما أن قدرا كبيرا من قواعد النحاة سيزول أو سيتغير تركيبه، من واقع الاستعمال وليس تدخلا من النحاة أو الباحثين بالحذف والاختصار، وبذلك يكاد ينطبق عليه قول النحاة قديما" المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال"، ومن هنا فإن هذه الدراسة الرامية إلى إعادة توصيف النحو العربي حسب المنطوق الفصيح، لتبقي اللغة العربية الفصحى هي لغة التواصل الثقافي والعلمي للأمة.

الهوامش:

١. إحياء النحو، من تقديم طه حسين للكتاب، ص ٨.

٢. المرجع السابق، ص٥٠.

٣. مصطفى إبراهيم، إحياء النحو ص٢٣.

٤. المرجع السابق، ص٢٦.

٥. محمد أحمد عرفة، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، مطبعة السعادة، القاهرة (د. ت). ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي ردت على إبراهيم مصطفى ردا علميا.

٦. شوقي ضيف، تجديد النحو، ص٣ وما بعدها.

٧. حسان، تمام، اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، ص٤٩.

٨. حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٠.

٩. المرجع السابق ص١٨٩.

١٠. حسان، تمام، اللغة بين المعيارية والوصفيةص٩.

١١. نفسه، ص١٠.

١٢. فسه، ص١١.

١٣. نفسه، ص٢٤.

١٤. حسان، تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٤٦.

١٥. المرجع السابق،ص٤٧.

١٦. الفهري، عبدالقادر الفاسي، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص٣٢.

١٧. المرجع السابق ص٢٧.

١٨. نفسه ص٣٣ وما بعدها.

١٩. الفهري، عبدالقادر الفاسي،اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية ص٥٢.

٢٠. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص ١٥.

٢١. من البيداغوجية إلى الديداكتيك، دراسة وترجمة د/ رشيد بناني، الحوار الأكاديمي والجامعي، ط ١ الدار البيضاء، ١٩٩١، ص ٣٩.

٢٢. أوزون، زكريا، جناية سيبويه، ص١٧.

٢٣. مغالسة، محمود، الجناية" جناية سيبويه" ورقة بحث مقدمة لمؤتمر آفاق جديدة في الخطاب، ٢٠٠٧م، ص٣، وفي هذا البحث مناقشة وافية لأوزون وبيان لما جاء فيه.

٢٤. المرجع نفسه ص٥.

٢٥. http://www.hindawi.org/contributors/٧٣٩٠٥٣٦٣/

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2